ريتا عوض

الجنون في ادب جبران

يصعب ان يحد الجنون بتعريف يجمع خصائصه المختلفة ويمنع عنه ما يمكن ان يعزي لغيره من صفات قد ترتبط باحوال اخرى من حالات الانقطاع عن التسلسل المنطقي الواعي . وليس الاهتمام بالجنون بدعة اختص بها العصر الحديث ، بل تظهر اهمية الجنون بالحاح في حياة البدائيين ، حيث كان للكهان والاطباء المشعوذين الذين ادعوا القدرة على الاتصال بالقوى الغيبية اهمية خاصة ، وكانوا يسمون بالمجانين .

ولعل اهمية الجنون ظهرت في اكثر صورها جلاء في الحضارة اليونانية . ولعل افلاطون كان من افضل من عبر عنها . لكن فكرة الجنون ليست ابتكارا افلاطونيا ، فقد دخلت الى اليونان مع الدين الديونيسي الذي ساد تلك البلاد لعدة قرون قبل زمن افلاطون ،ووجد التعبير الامثل عن نفسه في مسرحية يوريبيديس عباد باخوس (١) ويرجح ان ديموقريط هو اول الفلاسفة الذين شددوا على اهمية هذه الفكرة (٢) ففي تاكيده على دور الصدفة في الحياة والوجود الغى ديموقريط اهمية المنطق الانساني الذي يتناقض في طبيعته مع المصادفة التي تحد بالمفاجاة اللامنطقية . فيغدو الجنون الغاء لقواعد المنطق .

ويعد افلاطون في كتابه فيدراس الجنون هبة من السماء ويرى انه يرتبط بالالهة . ويعارضه بالمنطق الذي يعده خاصة انسانية . ويقول ان قدماء اليونان ربطوا بين الجنون والنبوءة ، الامر الذي يؤكد انهم اعلوا من شان الجنون (٣)

وضع افلاطون الجنون في مستويات اربعة : ربط بينه وبين التنبؤ بالغيب في المستوى الاول . وعد الطقوس التي تمارس لشفاء الامراض مستوى ثانيا . ووضع الالهام الشعري في المستوى الثالث (٤) ولا يطيل افلاطون الحديث عن هذه المستويات الثلاثة بل يتخذها سبيلا الى بلوغ ذروة هذا التدرج في الجنون الالهي ، فيصل الى المرحلة الرابعة والاخيرة ويسميها الحب (٥) فيصبح الجنون في اعلى مراتب الجنون هو الحب .

كيف يكون الحب جنونا ؟ يقودنا هذا السؤال الى طرح سؤال اخر : ما هو الحب الافلاطوني ؟ عرف افلاطون الحب في كتابيه الرئيسيين اللذين عالج فيهما هذا الموضوع ـ المأدبة والفيدراس بانه الرغبة في الخلود بالتوق الى الجميل . ووضع الصور التي تتجلى فيها هذه الرغبة في مستويات ثلاثة : حب الجسد الجميل اولا ، وحب القيم الجميلة ثانيا ، وحب الجمال الكلي الخالص من كل شائبة اخيرا . هذه المرحلة الاخيرة هي الحب الافلاطوني . انه عشق لمثال المثل الذي يختصر في ذاته الحق الاعلى والخير الاسمى والجمال الاكمل . وهنا يصبح الحب رمزا عينيا مطلقا للحقيقة الصوفية وهي ذوبان ذات الانسان الصغرى في ماهية الذات الكلية الكبرى . وهل ما يحبه العاشق ـ كما يقول افلاطون ـ سوى مرآة يرى فيها نفسه ؟ (٦) فيغدو الجنون انقطاعا تاما عن ارتباطات الانسان الانية في عالم الصيرورة وانجذابا مطلقا الى عالم الكينونة واتحادا كليا بمثال المثل . ومن هنا كان الجنون الهيا .

لم يرتبط الجنون ـ من حيث هو انجذاب من عالم الواقع وانقطاع كلي الى عالم ما فوق الواقع المثالي ـ بالتصوف من حيث هو انحلال الذات الصغرى في ذات كلية كبرى في التراث الاغريقي وحده . ففي التراث الاسلامي العربي والفارسي اصبح مجنون ليلى ـ الشاعر المنجذب من عالم الحس الى عالم ابتناه خياله كانت فيه ليلى مثالا ينقطع الى عبادته ـ اصبح رمزا للمتصوف الذي يهاجر بروحه الى دنيا الله ويبلغ حالة مشاهدة للذات الالهية ثم فناء كلي في ذات الله الكبرى . وتغدو ليلى رمزا عينيا مطلقا لله لان الاتحاد الصوفي يتم بالحب وحده . ولعل تاكيد الارتباط الذي لا ينفصم بين الحب والتصوف والجنون في الادبين العربي والفارسي يحمل رواسب افلاطونية دخلت التراث الاسلامي وتلونت بطابعه .

ظل ثالوث الحب والتصوف والجنون واحدا في تراث حضارات مختلفة حتى عصرنا الحديث . ولعله وجد التعبير الامثل عن ذاته في الحركة السريالية في الادب والفن التي ظهرت في فرنسا بعد الحرب العالمية الاولى . فقد سعى السرياليون الى بلوغ المطلق من خلال مفهوم

(١) Euripides , The Bacchae , tr . Philip Vellacott (Great Britain . 1971) .
(٢) Plato , Phaedrus , tr . and int . R . Hackforth (Indianapolis 1952) P . 58 .
(٣) Ibid . PP . 56-57 .
(٤) Idem
(٥) Ibid . P . 92 .
(٦) Ibid . P . 105 .

جديد للتصوف هو الصوفية المادية . واذ اصبحت المرأة في المرتبة الاخيرة من مراتب الرحلة الصوفية بالنسبة للسرياليين ، حل الحب معادلا للفن الذي اتخذه السرياليون وسيلة لبلوغ المطلق . يقول اندريه بريتون ـ مشرع الحركة السريالية ـ في بيانه الاول : « اننا نحول الفن الى اكثر صيغة بساطة وهو الحب » (٧) وقد رأى السرياليون ـ متأثرين بفرويد ـ ان المجانين ، وهم المنحرفون عن الحقيقة الخارجية، يعرفون عن الحقيقة الداخلية اكثر مما يعرف العاقلون . وهم يستطيعون ان يكشفوا للعاقلين حقائق لا يمكن النفاذ اليها بدونهم (٨) من هنا رفض السرياليون المنطق والغوا جميع الخصائص الانسانية المتعلقة بالتفكير المنطقي ولا سيما الذاكرة من حيث هي الحصيلة المنطقية المنظمة لتجارب الماضي (٩) وقد سعى الشاعر السريالي بتحرره من الذاكرة ، الى اكتساب النبؤة بالتوجه نحو المستقبل اللامحدود الذي تحكمه الصدفة ولا يسيطر عليه المنطق (١٠) يقول بريتون في كتابه مقابلات : « ان تخلق حياة تتألف كليا من مصادفات مروعة كهذه هو ان تحقق عالم ما فوق الواقع . » (١١) وبهذا عاد السرياليون الى فلسفة هرقليط الذي ربما كان اول من اكد اهمية الجنون بين الفلاسفة. وقد أقام السرياليون للجنون اعيادا فاحتفلوا عام ١٩٢٨ باليوبيل الذهبي للهستيريا (١٢)

يتضح مما تقدم ان ثالوث الحب والتصوف والجنون ربما كان نموذجا اصليا مغروسا في اللاوعي الانساني الجماعي ، اذ ظهر في امكنة متعددة عبر فترات زمنية متباينة وظل يحمل دلالات عميقة تجد استجابة لدى الانسان في حضارات مختلفة على مر العصور . من هنا لا ينظر الى تكرار الرمز الواحد على انه نسخ او سرقة ، لان الرمز في اساسه حقيقة نفسية قد يصح تعريفا للانسان يفرق بينه وبين الحيوان كما يرى الفيلسوف ارنست كاسيرر . ومع أن هذا الافتراض لا ينفي تأثر الفنان الفرد بالفلسفات والاداب التي قد تشكل مصدر الهامه ، فانه يعطي تعليلا جوهريا داخليا يتخطى النسخ الذي يأخذ بالظواهر الخارجية ويتجاوز السرقة التي تنفي شرعية امتلاك الصور والرموز المشتركة .

يلاحظ الدارس لادب جبران خليل جبران ان فكرة الجنون تتكرر في نتاجه عبر مؤلفات عديدة . فقد ظهرت للمرة الاولى في اقصوصة بعنوان « يوحنا المجنون » من كتابه عرائس المروج الصادر عام ١٩٠٦ . وشغلته الفكرة في عدة مقالات نشرها في مجلة الفنون بين عامي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، وضمنها كتابه الاول باللغة الانكليزية الذي صدر عام ١٩١٨ بعنوان المجنون بعد ان ترجمها بنفسه (١٣) وظهرت فكرة الجنون كذلك في مقطع بعنوان « حفار القبور » الذي استهل به جبران كتابه الاخير

---

(٧) Ferdinand Alquié , The Philosophy of Surrealism , tr . Bernard Waldrop (Ann Arbor , 1965) , P.7.

(٨) ايف دوبليس ، السريالية ، ترجمة بهيج شعبان (بيروت ، ١٩٥٦) ، ص : ٤٠ .

(٩) Anna Balakian , Literary Origins of Surrealism (New york , 1965) . P . 17 .

(١٠) Ibid . , PP . 122 - 123 .

(١١) Maurice Nadeau , The History of Surrealism(New york , 1965) From int . by Roger Shattuck, P. 21

(١٢) Balakian , P . 14 .

(١٣) Khalil Hawi , Khalil Gibran , His Background Character and Works (Beirut , 1972) ,P . 179.

باللغة العربية، العواصف ، الذي كتبت معظم مقاطعه بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ ونشر عام ١٩٢٠ (١٤) من هنا يبدو ان فكرة الجنون راودت جبران طويلا ، ولا بد انها تطورت عبر السنوات الاربع عشرة التي تفصل بين عام صدور عرائس المروج وعام صدور العواصف . فما هي الدلالات التي تحملها فكرة الجنون في أدب جبران ؟

يروي جبران في « يوحنا المجنون » قصة راع شاب يعيش في منطقة لبنان الشمالي قرب دير اليشع النبي ، يمضي ايامه في مناجاة الطبيعة وقراءة الاناجيل . ويضطر يوحنا في احد الايام ان يواجه رهبان الدير بعنف متهما اياهم بمخالفة تعاليم الدين الذي يمثلونه ، فبدلا يطالبه الرهبان بدفع غرامة مالية ، لان البهائم التي يرعاها دخلت الاراضي الملحقة بالدير واكلت بعض زرعه . ويتهم يوحنا بالجنون ويسجن . ويأتي والده ليشهد امام المحاكم بجنون ابنه :

طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ، ويتكلم عن اشياء غريبة لا حقيقة لها ، فكم سهر الليالي مناجيا السكون بالفاظ مجهولة ، مناديا خيالات الظلمة باصوات مخيفة تقارن تمازيم المرأفين المتشوذين؛ سل فتيان الحي يا سيدي فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاطفته الى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وان تكلم جاءت اقواله ملتبسة لا علاقة لها باحاديثهم . سل امه فهي ادرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسية ، فقد شاهدته مرات ناظرا الى الافق بعينين زجاجيتين جامدتين وسمعته متكلما بشغف عن الاشجار والجداول والزهور والنجوم، مثلما تتكلم الاطفال عن صغائر الامور . سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالامس محتقرا تنسكهم وتعبدهم ، كافرا بقداسة معيشتهم . وهو مجنون يا سيدي ... (١٥)

يعطي جبران في هذا المقطع تحديدا للدلالات التي يحملها الجنون كما رآه في هذه المرحلة . فموقف الثورة على التقاليد في الفكر والحياة اليومية ، الذي وقفه يوحنا ، سوغ للناس اتهامه بالجنون ، وقد لاحظ الدكتور خليل حاوي ذلك في دراسته لجبران فقال ان يوحنا اتهم بالجنون لانه انجيلي وروسوي . (١٦) فيوحنا كما يظهر في هذا المقطع هو انسان الطبيعة البدائي الذي تحدث عنه روسو ، والبدائي هو الانسان الطفل الذي يتوهج لاوعيه ويخبو وعيه ، لذلك فهو بعيد عن التسلسل المنطقي الفلسفي الذي تتصف به مرحلة النضج من حياة الانسان والحضارة ، وقريب من الرؤيا التي تعارض المدركات العقلية وتطال بالحدس ، فكان يوحنا شاعرا ولم يكن فيلسوفا . وهذه احدى الدلالات التي يحملها جنونه . وقد ذكرنا ان الجنون ارتبط بالشعر عند افلاطون ، لان الشعر هو الهام لا يدرك بالعقل الواعي بل بالحدس . ويوحنا هنا هو الشاعر الرومنطيقي ، ابن الطبيعة الذي يحدث الاشجار والجداول والزهور والنجوم ، اذ انه الطفل الذي ما زال يفعل من حيث هو وحدة ، لانه لم يبلغ بعد مرحلة التفريق بين الانا والعالم الخارجي . ويوحنا هو الرومنطيقي الثائر على الكلاسيكية لاعلائها شان طبقة صغيرة يحتل فيها رجال الدين مركزا هاما . ويدعو مثل الرومنطيقيين ـ الى اعلاء شان الفرد الذي يحق له ان يؤول النص الديني بنفسه ، ويدعو الى التخلص من طبقة الاكليروس التي تستغل الفقراء ماديا وتسيطر عليهم روحيا . وبذلك يحمل الجنون بالنسبة لجبران في هذه المرحلة ، دلالة اخرى ـ وهي رفض النظم التي تتحكم بالواقع ، والانجذاب الى عالم ما فوق الواقع حيث يخلق الانسان ـ بخياله ـ عالما مثاليا لا تتحكم به قوانين لا يرضى

---

(١٤) جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة ، مقدمة ميخائيل نعيمة (بيروت ، ١٩٤٩ ـ ٥٠) ، ج : ١ ، ص : ٣٦ ـ ٣٧ .

(١٥) م.ن.، ص : ١٠٣ .

(١٦) Gibran . P . 205 .

عنها . من هنا كان خليل الكافر ـ في ثورته على رجال الدين والسياسة مجنونا وان لم يسمه جبران بالمجنون .

يبدو ان فكرة الجنون ظلت تراود جبران ـ واعيا او لا واعيا ـ حتى ظهور المجنون عام ١٩١٨ ، والاله المجنون في « حفار القبور » من كتاب العواصف عام ١٩٢٠ . وقد تطورت فكرة الجنون عند جبران واكتسبت دلالات جديدة لم تظهر في « يوحنا المجنون » . وكان الرجل المجنون والاله المجنون تجسيدا لفكرة واحدة لان جبران خلقهما في فترة زمنية واحدة . فالرجل المجنون ـ كما يلاحظ حاوي ـ ليس سوى الاله المجنون بعد ان نقله جبران من وجوده الموحش في وادي الموت ، الى وجود مساو في الوحشة في قلب المجتمع والحضارة (١٧)

يلتقي الشاعر حفار القبور الذي يؤكد له ان البشر ليسوا سوى جثث مكردسة حول المنازل والمحاكم والمعابد . فاليت هو من يقف مرتعشا امام العاصفة ، اما الحي فيسير معها ولا يقف الا بوقوفها . وينكر حفار القبور ـ الذي يسمي نفسه الاله المجنون ـ ان يكون لغير الجن حقيقة، ويدعو الى عبادة الذات : « انا رب نفسي » (١٨) ، و « في الليل اركع امام نفسي واعبدها » (١٩) . ويقول : « اما الحقيقة المجردة فهي انك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير اميالها ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها باسماء مختلفة باختلاف اميالة وامانيه ، فتارة يدعوها البعل وطورا المشترى واخرى الله . » (٢٠)

يحمل مثل الاله المجنون في « حفار القبور » وجوه شبه كثيرة لصورة المجنون عند نيتشه . يدعو نيتشه في « مثل المجنون الذي يبحث عن الاله الميت » من كتابه الحكمة المبهجة الى عبادة الذات بعد ان قتل الانسان الله . ويحمل المجنون مشعلا مضاء في الصباح ويخبر الجماهير التي احتشدت حوله انه يبحث عن الله . ويقول انه لا يسمع سوى صوت معاول حفاري القبور الذين يدفنون الله . ويمجد المجنون فعل قتل الله ولكنه يعد البشر غير جديرين بعمل عظيم كهذا . ويقتحم المجنون كنائس عديدة صارخا : وما الكنائس سوى القبور التي دفن فيها الله (٢١) وليس زرادشت غير صورة اخرى للمجنون وان لم يسمه نيتشه مجنونا .

لعل شخصية حفار القبور كانت من اعنف ما قدم جبران في ادبه من شخصيات ، وقد اقترب في هذه المقطوعة ـ كما لم يقترب في اية مقطوعة اخرى ـ من نيتشه . فاله جبران المجنون يحقر البشر جميعا ويعدهم اموانا يتحركون ، ومجنون نيتشه يرى انه هو الاله الذي جاء في زمن قبل زمانه وينظر باحتقار الى البشر ويقول ان العمل العظيم ـ اي قتل الله ـ ما زال في بدايته ، ولم تظهر نتائجه العظيمة بعد ، كالبرق والرعد اللذين يحتاجان الى وقت للوصول الى انظار الناس واسماعهم بعد حدوثهما . فالعمل العظيم ما زال بعيدا عن البشر بعد ابعد النجوم عنهم (٢٢) وجبران هنا ـ وربما للمرة الاولى ـ يكتشف المعنى النفسي للدين والعبادة حين يقول ان الانسان على مر العصور لم يعبد سوى ذاته فيلقبها القابا مختلفة ، وكانه هنا يقتل الله من حيث هو حقيقة خارجية ويخلق الذات الانسانية التي يجب عليها ان تتفوق كي تصل الى مستوى الله ، فيحقق بذلك انسان نيتشه المتفوق الذي يحل محل الاله القتيل .

وتبرز فكرة الجنون في اكثر صورها جلاء عند جبران في كتابه المجنون . يتحدث المجنون في هذا الكتاب امثالا كما فعل المسيح وانبياء العهد القديم . يروي جبران في هذا الكتاب خمسة وثلاثين مثلا ، تقع في خمس وسبعين صفحة في ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير الى العربية . وقد عد ميخائيل نعيمة كتاب المجنون نقطة تحول في ادب جبران حيث يقول : « ان كتاب المجنون الذي ظهر بالانكليزية منذ اكثر من عام هو في نظري بدء طور جديد في حياة جبران خليل جبران الكتابية بل هو الحد الفاصل بين جبران الامس وجبران اليوم . » (٢٣) ولكن نعيمة يبدو وكانه يسخر من مجنون جبران في كتابه عن حياة جبران حين يقول ان جمعية الشعر الامريكية دعت جبران لالقاء بعض قصائده فالقى مقطوعة « الليل والمجنون » ولكن الجمهور لاقاه وقصيدته بفتور بلغ حد السخرية (٢٤) ولعل هذه الرواية تحمل من سخرية نعيمة اكثر مما تحمل من سخرية الجمهور الاميركي . ويعتبر حاوي ان نقد نعيمة اللاذع لكتاب المجنون كان نتيجة نظرته الى هذا الكتاب بمعزل عن مؤلفات جبران اللاحقة . فلو درسه في علاقته مع ما جاء بعده من مؤلفات لاستطاع ان يرى ان جو الرفض المهيمن عليه هو خطوة لا غنى عنها باتجاه نظرة جديدة ايجابية اتخذها جبران من الحياة (٢٥)

ويبدو لي ان نعيمة في الغربال لم يستطع ان يتفهم الجو الذي اضفاه جبران على حياة مجنونه واقواله حين قال : « اما كاتب المجنون فقد اتخذ من فكره تعبيرا لعاطفته فادرك ان من شاء ان يصلح ما فسد في الحياة وجب عليه ان يقبل الحياة كما هي ، وان ينصرف بعد ذلك الى تنقية ادرانها واحدة واحدة . فجبران اليوم ليس بالناقم على البشر ولا على حياة البشر . بل هو محب للبشرية وحياتها ومن حبه لها ينبه افكارها الى بعض ما فيها من الضعف والوهم والشناعة . ومنبهه ليس طبلا ولا جرسا ولا مدفعا ، بل مثل بسيط نقرؤه فنضحك ، ثم نعبس ثم ننتفض اشمئزازا من انفسنا ، ثم نجلس صامتين مفكرين بتقويم ما اعوج وبتر ما فسد فينا . » (٢٦) فجبران لا يقبل الحياة كما هي ، كما يظن نعيمة ، حتى يغيرها وليس محبا للبشر ، كما يتوهم ، بل هو في سخريته المريرة اللاذعة يسعى الى تحطيم الاشكال البشرية والحضارية جميعا التي يرفضها . فهو ليس مسيحا وديعا بل هو ثائر عنيف يدعو الى الهدم قبل اعادة البناء .

وقد لاحظت مي زيادة ذلك واقر به جبران نفسه . فبعد ان ارسل جبران لي كتابيه المجنون والمواكب وجهت مي اليه كتابا خاصا صارم اللهجة ـ كما يصفه جميل جبر ـ استنكرت فيه استسلامه لنيتشه وطريقة كلامه على الشهوات منتهية الى لوم مرير عبر عنه سؤالها : « اهو انت المجنون ؟ » فاجابها جبران : « المجنون ليس انا بكليتي ، واللذة التي اردت بيانها بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدي من الافكار والمنازع ، واللهجة التي وجدتها مناسبة لميول ذلك المجنون ليست باللهجة التي اتخذها عندما اجلس لمحادثة صديق احبه واحترمه. واذا كان لا بد من الوصول الى حقيقتي بواسطة ما كتبته فما عسى يمنعك من اتخاذ « فتى الغاب » في كتاب المواكب لهذه الغاية بدلا من المجنون ؟ ... ان نفسي يا مي اقرب ، بما لا يقاس ، الى « فتى الغاب » ونغمة نايه منها الى « المجنون » وصراخه . وسوف يتحقق لديك بان « المجنون » لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة

(١٧) Ibid . , P. 194 .
(١٨) المجموعة الكاملة ، ج : ٢ ، ص : ١٣ .
(١٩) م.ن. ، ج : ٢ ، ص : ١٤ .
(٢٠) م . ن . ، ج : ٢ ص : ١٢ .
(٢١) Fredrick Nietzesche , The Complete work Joyful wisdom , ed . Oscar Levy (New work , 1964) V. 10 , PP . 167 - 168 .
(٢٢) Ibid , P . 168 .
(٢٣) الغربال ، (بيروت ، ١٩٦٤) ، ص : ١٧٠ .
(٢٤) Gibran , P . 140 .
(٢٥) Ibid , P . 213 .
(٢٦) الغربال ، ص : ١٧١ .

في معادن مختلفة . لا انكر ان « المجنون » كان حلقة خشنة مصنوعة من حديد . ولكن هذا لا يدل على ان السلسلة تكون كلها خشنة ومن حديد . » (٢٧) وقد تنبه خليل حاوي الى الموقف الثائر العنيف الذي يقفه المجنون ورأى ان فكره ينصب في تيارين : اولهما تحطيم القيم الموروثة في الحضارة ، والثاني افناء الذات الصغرى وتحقيق الذات الكبرى وهي الله . ويقول حاوي ان هذين التيارين يكمل احدهما الاخر لانهما يهدفان الى تحرير الانسان من الاشكال الخارجية التي تقيده ومن القيود الداخلية التي تستبد به . (٢٨)

ما هو الجنون كما يراه جبران في هذه المرحلة ؟ وما هي الدلالات التي ترتبط بالجنون في كتاب المجنون ؟ يستهل جبران كتابه هذا بنشيد عنوانه « كيف صرت مجنونا ؟ » يقول المجنون فيه انه نهض من نوم عميق فوجد ان اقنعته السبعة التي حاكها في حيواته السبع على الارض قد سرقت فوقف عاريا للمرة الاولى امام الشمس التي قبلته ، فالتهبت نفسه بحبها وبارك سارقي اقنعته : « هكذا صرت مجنونا ، ولكنني قد وجدت بجنوني هذا الحرية والنجاة معا : حرية الانفراد ، والنجاة من ان يدرك الناس كياني ، لان الذين يدركون كياننا انما يستعبدون بعض ما فينا » (٢٩) ويخاطب المجنون الله من حيث هو سيد والمجنون عبد فلا يجيبه . ويخاطبه بعد الف سنة من حيث هو خالق والمجنون مخلوق فلا يجيبه . ويخاطبه بعد الف سنة اخرى من حيث هو اب قدوس والمجنون ابنه فلا يجيبه . وبعد الف سنة يصعد المجنون الى الجبل المقدس ويخاطب الله قائلا : « يا الهي الحكم العليم يا كمالي ومحجتي . انا امسك وانت غدي . انا عروق لك في ظلمات الارض وانت ازاهر لي في انوار السماوات ونحن ننمو معا امام وجه الشمس . فعطف الله اذ ذاك علي وانحنى فوقي وهمس في اذني كلمات تذوب رقة وحلاوة ، وكما يطوي البحر جدولا منحدرا اليه طواني الله في اعماقه . وعندما انحدرت الى الاودية والسهول كان الله هناك ايضا .. » (٣٠)

يؤكد جبران في هذه الصفحات الاولى من كتاب المجنون وحدة الثالوث ـ الذي اشرنا اليه ـ الجنون والحب والتصوف . فالجنون هنا هو اللاوعي عاريا من قوانين الذات ومن نظم المجتمع الانساني . والمجنون لا يبارك جنونه الا عندما تلتهب ذاته في حب الشمس المحرق فيكتشف ان السبيل الوحيدة الى الله هي التصوف حيث تمحي ذات الانسان الصغرى وتولد الذات الانسانية الكبرى وهي الله . ويؤكد جبران هذه الفكرة في مواضع كثيرة من كتابه المجنون . فيقول في مثل « الليل والمجنون » : « اننا اخوان توأمان ايها الليل فانت تكشف مكنونات اللانهاية وانا اكشف مكنونات نفسي » . (٣١) ويقول في مثل الفلكي « وهو رجل اعمى : » ثم وضع يده على صدره وزاد قائلا : « انني ارصد هذه الشموس وهذه الاقمار وهذه النجوم . » (٣٢) فتصبح ذات الانسان مرآة تختصر الوجود .

ولعل مثل « الجنين الاعظم » (٣٣) يصح شاهدا على وحدة ثالوث الجنون والحب والتصوف ، الذي يشكل ـ في رأيي ـ المحور الذي يدور عليه فكر مجنون جبران . يقول المجنون في هذا المثل : « ها انا جالس بين اخي الجبل واختي البحر ، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا ، تربطنا محبة عميقة قوية غريبة ... نتكيء متعانقين عناقا ابديا ولكننا غير مستريحين . وهل من راحة لشوق مستعبد وشهوة لا تنفذ ؟ اين اله النار الملتهب فيدفيء مضجع اختي ؟ بل اين الهة الفيث الفياضة فتخمد براكين اخي ؟ وانا اشقى الاثنين . من اين لي المراة التي تتسلط على قلبي ؟ في سكينة الليل تردد اختي في احلامها اسم اله النار المجهول لتدفئتها . وينادي اخي الاهة الفيث القصية لتبريد غلته . اما انا فمن ترى انادي في غفلتي ؟ لست والله ادري ! لست والله ادري ! ها انا اذا جالس بين اخي الجبل واختي البحر ، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا ، تربطنا محبة عميقة قوية غريبة . » (٣٤)

يؤمن مجنون جبران بوحدة الوجود : اذ ان روح الله الحالة في صور الطبيعة تحول هذه الصور الى آلهة . ويتحد المجنون بالجبل والبحر بواسطة الحب ويصبحون ـ كالثالوث المسيحي ـ ثلاثة في واحد : لكل كيانه الخاص لكنه ذائب ـ بمعجزة تتخطى التعليل المنطقي ـ في وحدة لا تنفصم . ويصبح المجنون الها يعبد ذاته كما يعبد مجنون ليتشه ذاته .

ويؤمن مجنون جبران بالتقمص : اذ تعود الروح بعد الف سنة فتتجسد في انسان اخر (٣٥) ولعله يعود في ذلك الى افلاطون الذي قال ان الانسان لا يبلغ اعلى مرتبات الجنون الالهي الا بالتقمص ، لانه لا يستطيع ان يحقق اسمى ما يمكن ان تصل اليه ذاته من تفوق في حياة واحدة . لذا تعود روحه بعد الف سنة في جسد اخر (٣٦) فيصعد خطوة جديدة باتجاه الفناء في ذات مثال المثل بان يعشق الخير والحق والجمال ، الثالوث الذي لا ينفصم .

يقول جبران في رسالة بعث بها الى ميخائيل نعيمة عام ١٩٢١ ان الجنون هو الخطوة الاولى نحو التجرد الرباني ، وهو يساعد على ادراك ما وراء نقاب العقل من اسرار (٣٧) فالجنون كما يراه جبران في هذه المرحلة يرتبط بالجنون عند السرياليين من حيث هو كشف لما في اللاوعي من اسرار . ويستبعد حاوي ان يكون جبران على الفة بالحركة السريالية عندما كتب المجنون لان الحركة وان ابتدأت مع رامبو فانها لم تنتشر الا بعد الحرب العالمية الاولى (٣٨) ولكن ذلك لا يمنع ان يكون جبران قد قرأ رامبو او غيره من الشعراء الذين مهدوا للحركة السريالية في فرنسا وتعرف الى مذهبهم في تشويش الحواس وتفوير اللاوعي والدعوة الى الجنون ـ ولا سبيل الى تاكيد ذلك .

كذلك يرتبط الجنون عند جبران في هذه المرحلة بالتصوف الاسلامي : العربي والفارسي . اذ كان المجنون ـ كما ذكرنا ـ هو رمز للمتصوف الذي تذوب ذاته الصغرى في الذات الالهية الكبرى ويتحد بالله اتحادا كليا .

ويرتبط الجنون عنده بالتصوف الهندي . فمجنون جبران هو رمز لكل انسان يسعى الى تحقيق ذاته الكبرى ، لذلك فهو بودا الذي لا يصل حالة النيرفانا الا اذا اصبح كل انسان ، بالفعل ، بودا . فيغدو بودا رمزا لكل انسان اله . والمجنون بهذا هو البطل الوجودي الذي يختار للبشرية جمعاء عندما يختار لنفسه .

يتضح مما تقدم ان فكرة الجنون تطورت في ادب جبران . فبينما لم يكن الجنون يعني سوى الثورة على النظم الاجتماعية الخارجية ـ كما بدا في « يوحنا المجنون » ـ اصبح في « حفار القبور » والمجنون تجسيدا لنموذج اصلي كامن في اللاوعي الانساني الجماعي عبر عن نفسه في امكنة وازمنة مختلفة وهو ثالوث الجنون والحب والتصوف .

بيروت

---

(٢٧) جبران سيرته ، ادبه ، فلسفته ورسمه (بيروت ، ١٩٥٨)، ص : ١٣٠ .
(٢٨) Gibran , P . 196 .
(٢٩) المجنون امثاله واشعاره ، ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير (القاهرة ، ١٩٤٧) ، ص : ٦ .
(٣٠) م.ن. ، ص : ٨ .
(٣١) م.ن. ، ص : ٥٣ .
(٣٢) م. ن. ، ص : ٦٢ .
(٣٣) م.ن. ، ص : ٦٣ .
(٣٤) م.ن. ، ص : ٦٣ ـ ٦٤ .
(٣٥) م.ن. ، ص : ٨ .
(٣٦) Phaedus , P . 86 .
(٣٧) جبر ، ص : ١٢٥ .
(٣٨) Gibran , P . 231 .